حركة شهداء قرطبة خلال القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) دراسة من خلال المصادر المسيحية

أ. أحمد غنيمة
جامعة السانية ـــ وهران

تمهيـــــــد

من المؤكد أن فكر التسامح كان الميزة الأساسية لدى المسلمين الأوائل المتشبعين بالتعاليم القرآنية والسنة النبوية، لكن "التاريخ الآخر للإسلام"، أي التاريخ الذي كتبه غير المسلمين، وبخاصة النصارى، (العرب والإغريق واللاتينين) وبشتى أشكاله وإتجاهاته، ظل لمدة قرون من الزمن يسجّل صفحات داكنة نكاد نجهلها اليوم تماما. ومنذ أن كتب المؤرخ البيزنطي تيوفان (ق7م) Teophane كتاب التأريخ *Chronographica* مرورا بيوحنا الدمشقي القديس (675-749) Jean Damascènne واللاهوتيين الوسيطيين أمثال توماس الإكويني (1224-1274م) St. Tomas Aquinus ورامون لول (1232-1316م) Ramon Lull وحتى زمن متأخر، تواصلت عملية وصف الإسلام بشكل غريب... ولكن موضوعنا هذا سيحاول التركيز على مجموعة أحداث خلال فترة حكم الخليفة

الأندلسي عبد الرحمان الثاني (822-852م)، ثم محمد الأول (852-886م) بقرطبة (ق3هـ /9م).

لقد تعرض أحد الرهبان المسيحيين للإستفزاز من طرف مجموعة من المسلمين، إنتهت الأحداث بإعدام المسيحي بعد شتمه للرسول (ص)، وللإسلام وإصراره على ذلك، كان يمكن أن يكون مجرد حادث عابر لو انتهت الحادثة لغاية مغايرة. لكنّ الأحداث تحوّلت إلى قضية خطيرة أنتجت حركة عميقة داخل الوعي المسيحي، وعرفت في المصادر المسيحية بحركة الشهداء، أو شهداء قرطبة[1].

لماذا دراسة هذه الحركة؟

إن تاريخ المواجهة الإسلامية-المسيحية المتعددة الأبعاد، لا يظهر بوضوح في مصادره المسيحية في دراساتنا العربية الإسلامية اليوم، على الرغم من شدّة الصراع وقوة التأثير التاريخي على واقع المواجهة اليوم، فالحاضر لا يمكن فهمه واستيعاب مختلف عناصره واتجاهاته دون البحث عن/ وفي جذوره التاريخية وشروط تشكل الأفكار والقيم والسلوكات داخل المجتمع وثقافته. ومعرفة ثقافة مجتمع ما أو حضارة ما، تستند إلى البحث في تراثه الديني والفكري الذي يعكس مباشرة حقيقته ومجرى واقعه من حيث الوعي والسلوك.

[1] لقت تحدثت المصادر المسيحية الرسمية في قرطبة (أسقف قرطبة) عن هذه الحركة على أنها مجرد عمليات إنتحارية ناتجة عن ضرب من الجنون.

لقـــد تأسســـت الثقافة المسيحية على نص مركزي هو الكتاب المقدس[2] والـــذي ظل لزمن طويل مصدر المعرفة ومرجع الوعي للثقافة الغربية كلها، وهناك نصـــوص أخرى ذات أهمية بالغة تمثلت في أعمال أباء الكنيسة، وأعمال فلاسفة العصـــر الوســـيط والمجادلين اللاهوتيين. ويكتسي النص الجدلي المسيحي بمختلف أشكاله، -المعرفي والثقافي- أهمية خاصة لأنه مصدر أساسي وضروري لمعرفة نمط تفكير "الآخر" وإدراك أشكال ومسويات الفعل ورد الفعل لديه. وإنطلاقا من هذا التصـــور فـــإن النصوص التي كتبها نصارى حركة شهداء قرطبة تقرّبنا كثيرا من معـــرفة العديد من الأحداث المزامنة وفق بعدين وإتجاهين متضادين، كما تساعدنا على توسيع آفاق الروية التاريخية والمستقبلية.

وأهم هذه المصادر قد عرضها نورمان دنيال Norman Daniel

EULOGIO Cordubiensis, *Memoriale Sanctorum, Liber Apologeticus Martyrum, Documentum Martyriale, Epistolae* and *De vita et passione SS. Florae et Mariae*, all in Migne, *Patrologia Latina*, (MPL) 115.

AlVARUS Cordubiensis, *Indiculus Luminosis* and *Epistolae*, in (MPL) 221, and *Vita vel Passio S. Eulogii* in (MPL) 115.[3]

لم تكن هذه المصادر طفرة تاريخية حدثت كرد فعل أو كتعبير عن شكل من أشكال المقاومة المسيحية ضد المسلمين في الأندلس، بل أنّ الواقع التاريخي ألزم كل

[2] الكتاب المقدس، في غياب مصادر التاريخ تبقى هذه الوثيقة من المصادر الأساسية للديانة و التاريخ اليهودي والمسيحي، ويشمل العهد القديم والعهد الجديد.

[3] Norman Daniel, *Arabs and Mediaeval Europe*, Longman, London, Librairie du Liban, 1978, Notes p., 333.

من أولوج وألفار البحث في التراث اللاهوتي الجدلي الكنسي من أجل إيجاد مادة سجالية تبريرية يمكن استغلالها وتحويلها إلى طاقة للمواجهة. لقد إنتقل أولوج إلى مدينة بنبلونة Pamplona وتحصل على نسخة لاتينية عن حياة النبي (ص) كما إطلع على بعض أعمال الجدل القديمة، ليخرج بمجموعة من الأفكار و المواقف...

« لقد كتب أولوج Eulogios عن تاريخ محمد (ص) في مقدمة كتابه: دفاع الشهداء Apologeticus Martyrum وكذلك في كتاب آخر Memorialis Sanctorum تحدث فيه عن الإسلام, ووصفه بأنه بدعة مسيحية (أي أنه هرطقة) ملاحظا أن الديانة الإسلامية هي الوحيدة التي تخلصت كليا من الكنيسة ونسخت الشرائع السابقة. كما استعرض أولوج وبدقة ملفه للانتباه في ذلك الوقت التعاليم القرآنية الخاصة بموضوع المسيح Christology »[4].

أما ألفارو القرطبي Alvarus « فكان من المسيحيين الأغنياء، إرتدّ عن اليهودية، وتزعم مع أولوج هذه الحركة، وقد ألّف Indiculus Luminosus ويصرّح أن محمدا (ص) أراد وضع عهد ثالثUn Troisième Testament، اعتبر أن اللغة العربية واللغة العبرية متقاربتان. ونتيجة اطلاعه على اللغة العربية استطاع أن يلفت النظر الى بعض الحقائق عن المسلمين التي كانت غامضة جدا في الفكر الغربي آنذاك»[5].

[4] Victor Segesvary, *L'Islam et la réforme, Etude sur les attitudes des réformateures zurichois envers l'Islam*, L'age d'Homme, Lausanne, 1978, p. 46.
[5] V. Sigesvary, *op. cit.*, p. 46.

كما هو معلوم أن جوهر الخلاف بين المسلمين والمسيحيين تمحور حول مسائل عقائدية لاهوتية ثلاث وهي ألوهية المسيح والتثليث والنبوة. فالقرآن الكريم يتحدث عن المسيح عيسى(س) على أن مثله مثل آدم, وأنه كلمة الله وروحه، ومع كل ما أوتي من فضل ومعجزات، فهو ليس "بابن الله" وليس "إلها" إطلاقا ولايساويه في شيء، ﴿لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفؤا أحد﴾ (سورة الإخلاص). كما أن القرآن قد فصل في مسألة التوحيد فصلا، وأثبت نبوة عيسى(س) ونبوة محمد (ص) وعلى الرغم من كل هذا فإن الجهد الكبير الذي بذله أجيال من المسيحيين في الإستدلال على ألوهية المسيح، استمر مميزا للنسق الجدلي الشرقي والغربي ضد ممن وصفوا بالمراطقة واتهموا بالإنحراف والكفر ثم ضد الإسلام، حتى ظهور حركة شهداء قرطبة، بل استمر بعد أيضا.

ومـــن أجـــل دراسة هذا الموضوع وتتبع المصادر القليلة والغامضة، وجب البحث في الأبحاث والدراسات المعاصرة، ومن أهمها:

Daniel Norman, *Arabs and Mediaeval Europe*, Longman, London, Laibrerie du Liban, 1978.

_____ *Islam and the West the making of an Image*, Edembrgh University Press, 1960.

E. Levi-Provençal, *Histoire de l'Espagne musulmane*, (t.I), Nouvelle Edition, Maisonneuve & Cie, Paris, 1950.

Philippe Sénac, *l'Image de l'autre, Histoire de l'Occident médiéval face à l'Islam*, Flammarion, Paris, 1984.

كيف ظهرت الحركة؟

إن الفتح الإسلامي للأندلس و استقرار سلطته السياسية والثقافية لعشرات السنين، قد أنتج ردود أفعال طبيعية، في حالات كثيرة واستثنائية في حالات أقل، كما حدث مع ماعرف بحركة شهداء قرطبة. إن الشعور الحاد بعدم القدرة على التكيّف مع الواقع الثقافي والسياسي والاجتماعي، قد ولدّ شعورا متطرفا وحالة نفسية متوترة، مهيئة لشتى الموافق العدوانية، وبشتى الأشكال والصيغ وحتى أن تطلب الأمر استفزاز الخصم -صاحب السلطة والقدرة- ودفعه إلى الانتقام مع تقبل نتائج هذا الوضع وغايته المأساوية بل وأكثر من ذلك، إظهار الافتخار واعتبار الموقف شهادة، تكفّر الذنوب وترضى الإله.

" لقد بدأت القصة مع أحد الرهبان النصارى، وتذكره المصادر المسيحية بإسم Perfectus وربما كان اسمه الكامل، (كانت تكتب الأسماء باللاتينية في حين أن مدلولاتها كانت عربية مثل Servus-Dei أي عبد الله) كان يتردد كعادته على أحد أسواق قرطبة لقضاء حاجاته، حيث قام بعض المسلمون -بحكم الفضول أو سوء نية- بتوجيه أسئلة إليه حول موقف الكاثوليك من عيسى المسيح عليه السلام ومن محمد (ص).

وتقول المصادر اللاتينية أن الكامل اعترف مباشرة بألوهية المسيح لكنه اعتذر الخوض في الحديث في شخص النبي (ص) (والذي تقول فيه المصادر المسيحية أنه كان كاهنا Vates وليس نبيا Propheta) ويحتمل أن الجماعة كانت تمزح معه ولكنهم أصروا على أن يبدي رأيه، فانفجر شاتما للنبي (ص) مستشهدا بالإنجيل:

"سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون علامات عظيمة وعجائب حتى إنهم يضلون المختارون إن أمكن"[6] لم يكن الكامل يتوقع أن الكلام في هذه الظروف سيجل له الكثير من المتاعب، وتذكر المصادر أن هؤلاء القوم "إتصفوا بقلة الإيمان"، على الرغم من اعترافهم بأخطائهم وتركوه يذهب، ولما عاد مرة ثانية إلى السوق صرخ نفس الأشخاص بأنه هو المتهور الأحمق الذي شتم الرسول (ص) : وتمتنع المصادر عن ذكر احتمال تضرّعه إلى القوم، ثم تذكر "أخذوه إلى القاضي، وأمامه حاف وأنكر ما قال، لقد رمى في السجن وهنا بدأ في التهجم على دينهم ككل".

لقد عاش هذا الراهب حالات مختلفة، كالتهور والاعتدال ثم دفع نفسه إلى الهلاك، وأخيرا حكم عليه بالإعدام في يوم عيد الفطر من سنة (أول شوال 253هـ 850م). وقبل أن ينفذ فيه الحكم اغتنم الفرصة لشتم النبي (ص) ثانية وتوعد الحاضرين بالجحيم، وفي نفس الظروف انقلب قارب تزه بصاحبيه في النهر، فغرقا، فاعتبر المسيحيون ذلك عقابا من الله وأخذوا الجثث خفية، - على الرغم من حرص السلطات على عدم ممارسة هذا الفعل- وظهر مع هذا الحادث فكرة تقديس الرفاة، وانتشر الخبر خارج إسبانيا حيث أصبح بعض المتعصبين يأتي من فرنسا ليحصل على رفاة شهيد ليقدسها[7].

---

[6] إنجيل متى ،24:24، الكتاب المقدس، طبعة دار المشرق، بيروت، 1983.

[7] تقول المصادر المسيحية أن ملك فرنسا شارل الأصلع كان يشجع الرهبان المتحمسين للذهاب إلى الأندلس من أجل الإلقاء بأنفسهم إلى التهلكة وإعتبار ذلك شهادة ترضي المسيح.

أمـــا الحالـــة الثانية فكانت مع أحد التجار النصارى، وكان يدعى يحيى (يوحـــنا)، حيث اعتاد الحلف باسم النبي (ص) من أجل بيع سلعته وكسب مودة الزبائن المسلمين، وهذا ما جلب له بغض التجار المسلمين المنافسين، والذين قالوا بأنـــه يحلـــف باســـم النبي (ص) ليوهم الناس بأنه مسلم، ولم تركز المصادر على الخطيـــئة، بقدر ما ركزت على عدم تكافؤ الجريمة مع العقوبة، وأصبح يحي يعرف بشتمه لكل شخص يتفوه بذكر النبي (ص) ؛ وقد أثار هذا الوضع المسلمين حيث أسرع به إلى القاضي يتهمه أنه " ساحر خبيث مستخف باسم النبي ". لقد نفى أن يكـــون قـــد تلفـــظ بذلك، وقال أنه متهم من طرف منافسيه في التجارة. أصدر القاضـــي حكمـــا بجلده أربعمائة جلدة، على أن يعرض في المدينة على ظهر حمار ويـــنادي منادي البلدة بصوت مرتفع "هذا جزاء كل من يحاول مس قدر النبي"، ويبدو أنه منح فرصة إعلان إسلامه لتجنب العقوبة ولكنه رفض وآثر إثارة مشاعر المسيحيين المتواجدين بالمدينة.

حتى هذه النقطة فإن حركة الشهداء الحقيقية انفجرت مع ظهور شخصية إسحاق Ishaq-Isaac المتميزة. لقد ولد من عائلة غنية وأصل نبيل، كان عصاميا ومهذبا، تعلم اللغة العربية وأجاد الدراسة وشغل منصبا استثنائيا، لدى الخليفة، كاتبا في الحكومة.

وبسبب رغد العيش ومعرفته للأمور الدنيوية، تحول فجأة إلى حياة الرهبنة، وكان يعتزل في دير في الجبال تابعا للعائلة، ينفق عليه عمّه وعمّته الغنيين، وكان أخوه رئيسا للدير. لكن كان يمكن أن يكون موفق أبويه مخالفا لهذا الاتجاه، باعتبارهما قد دفعاه إلى خدمة السلطة المسلمة وأعطياه اسما ملائما، إسحاق

مسيحي ومسلم ويهوديا أيضا. بعد ثلاث سنوات من حياة الرهبنة عاد إلى قرطبة واتجه إلى القصر، وقال للقاضي أنه لم يرد سوى أن يكون " عضوا نشيطا " لدينه لو تفضل القاضي وشرح له "الأسباب والمبررات" وجاء عرض القاضي واضحا ومعقولا في المصادر، لكن إجابة إسحاق للقاضي كانت: " لقد كذبت". لقد شرع في شتم الإسلام وانتهى إلى دعوة القاضي .. للتنصّر. ارتبك القاضي "وأصيب بصدمة" و "لطم اسحاق على وجهه"، بدا اضطراب واضح على إسحاق وقال: " كيف تجرؤ على ضرب ملامح تشبه صورة الله ؟" استقبح الفقهاء الحاضرون سلوك القاضي الخاطئ، وبرّر القاضي فعلته باحتمال أن يكون إسحاق في حالة سكر، نفى ذلك إسحاق " الراهب الشجاع "، وكان متحمسا لبسط عنقه للجلاد، لم يأمر القاضي بإعدامه ، بل زجّ به في السجن ولكن أصرّ على أن يعدم وتدفن جثته كي لا تستعمل كرفاة مقدسة. وهذه القصة توحي باضطراب عاطفي شديد أو ربما اضطراب عقلي، وذلك بالتخلي عن الإعتدال المألوف لدى إسحاق، والعودة إلى الدير، ثم الدفع بنفسه إلى الموت التي اعتبرها شهادة.

لقد سار عمّه، رئيس الدير ورهبان خمسة آخرون على نهج إسحاق وهذا يعكس جوّ الحماس الشديد الذي عاشه الرهبان داخل الدير، واعتبر أحد الرهبان أن الله قد تقبل إسحاق مثلما تقبل إسحاق من أبيه إبراهيم (عليهما السلام)، وجاء رسول من المدينة يخبر الجميع باستشهاد العم الخوري مع رفقائه.

إن مصادر هذه الأحداث الشخصية نادرة وكتبت في سياق جدلي سجالي، من أجل الردّ على المسيحيين المعتدلين، والدفع بهم إلى قبول فكرة الشهادة، لقد كان الكاتبان الأساسيان لهذه القصص كل من أولوج وألفارو وكانا

صـــديقين. الأول رجـــل ديـــن، والـــثاني لم يكن متدينا، ألّف على نظام الجدل الكلاســـيكي التبريري كتاب فهرس المستنيرين Indiculus Luminosus وكتب Vita vel Passio S. Eulogii سيرة القديس أولوج، صديقه المجادل، الذي كان كاهـــنا ووصل إلى منصب رئيس أساقفة طليطلة، وهو واحد من شهداء الحركة، كمـــا كـــتب ألفـــار عن الشهداء وكتب إرشادات لإثنين منهم، ولكنه لم يكن يستعجل الشهادة، بل أنه لم يكن شهيدا أبدا، وقد اعترف كلاهما أن إسحاق هو النموذج الأول للشهداء في قرطبة، وقال ألفار : أول " أولائك الذين جاءوا حقا طوعا " وقال أولوج أول " شهدائنا التلقائيين "، ويعترف ألفار أن أحكام الإعدام كانـــت شكلا من أشكال المقاومة العنيفة التي صعب على الحكومة مواجهتها لأن أحكامهـــا انقلبت ضدها. وهذا المؤلف قد حدد اتجاه نظام الجدل الذي دافع عنه هذان الكاتبان وانتشر في أوروبا الغربية، واستمر في مهاجمة الإسلام طويلا.

وهناك العديد من القصص الشخصية التي وردت في تلك المصادر وأهمها كانـــت قصـــة فلورا العذراء Flora التي ولدت نتيجة الزواج المختلط مع أختها وأخـــيها. وكان أبوها مسلما من الجنوب، مات شابا وبقيت في الأسرة المسلمة، ولكـــن تحـــت تأثير أمها المسيحية، وكان أخوها مستقيما متدينا مثل أبيه وأخته، ويـــروي أولوج أنه كان " مضطهدا لها " ونظرا لإزدياد المشاكل اجتماعيا تمزقت العائلة، وكانت فلورا تفكرا مليّا في النص القائل : " ومن ينكرني قدّام الناس أنكره قدّام أبي الذي في السماوات "[8]. غادرت البيت لتعيش علانية مع المسيحيين دون

[8] متى ، 10: 33.. مصدر سابق.

إذن أمها، وحاول أخوها البحث عنها خوفا من إثارة المشاكل، مما اضطره إلى اتهام بعض رجال الدين وإزعاجهم داخل المعابد، ثم عادت إلى البيت معلنة أنها مسيحية. لقد حاول أخوها تغيير رأيها بلطف، لكن دون جدوى، ثم استعمل "التهديد والضرب"، ثم أخذها إلى القاضي وشهد بأنها كانت دوما مسلمة، لقد ارتدت إذن، أنكرت فلورا ذلك، ولكن الأدلّة التي قدمها أولوج تظهر أنها كانت " تراوغ "، وعقوبة الردّة في الإسلام هي القتل، لكن فلورا لم تكن ترغب في الإستشهاد، وأن ردتها لم تثبت، "وأمر القاضي بجلدها، حتى أصبحت عظام رقبتها عارية " حسب ما روى أولوج وبعد بقائها في البيت، تحسنت حالتها بعد أيام، هربت تحت جنح الظلام إلى بيت مسيحي حيث وجدت مأوى لها، وهناك تعرفت على أولوج الذي قال: " أنا ذلك المذنب، المثقل بالآثام، لمست بيدي الإثنين ندوبها الطاهرة ورقبتها الرقيقة"هذا ما كتبه بعد موتها، وكان يراسلها وهي في السجن.

وبعد عودتها إلى البيت وقضائها بعض الوقت، إلتفت صديقة بإحدى الكنائس، فتاة تحمل الفكرة نفسها، إنها مريم أو ماري Marie ، أخت أحد رهبان الدير الستة الذين ضحوا بأنفسهم أسوة بإسحاق، وبالنسبة لأولوج فإنّ ماري قد " بوركت " Blessed أما فلورا فقد قُدست .Sanctissima.

لقد قررت الفتاتان الذهاب إلى القاضي وتسليم أنفسهما، وقالت فلورا أنها كانت تحت التهديد حينما أنكرت المسيح، مضيفة أنها ولدت من " أصل عربي "ربما هذا إشارة أنها كانت مسلمة وبالتالي إرتدت، ومن جهتها فقد أعلنت ماري أنها الأخت الحقيقية لأخيها الشهيد، وأنها تتفق معه في إدانة الديانة الإسلامية التي اعتبرتها "إختلاق الشياطين ".

كتب أولوج وثائق عن شهادة استشهادهما من السجن آنذاك وقال بأن القاضي غضب غضبا شديدا وأدخلهما السجن وأمرهما بالبغاء ولكن هذا لا يمكن أن يصدر عن سلطة القاضي التي تراعي دوما تعاليم الشريعة الإسلامية، ولكن استمرت الفتاتان في العناد، وقالت فلورا بأنها كانت "مصابة بظلامية الجهل باتباعها ديانة أبيها"، و"حبيسة أخطاء العرب"، ولما أرغمت على الإفصاح إن كانت مصممة على الردّة، هاجمت الرسول (ص) " بحجج ذكية " داخل المحكمة، وصدر حكم بإعدام المرأتين بقطع رأسيهما، لقد تركت الجثتان للكلاب والطيور، ثم ألقي بهما في النهر حيث وجدت أجزاء من جثة ماري واستعملت في عبادة الرفاة وتقديسها التي كانت منتشرة آنذاك. وبعد ذلك أطلق سراح أولوج ومن تبقى من المسيحيين المساجين.

لقد انتخب أولوج رئيس أساقفة طليطلة، وبعدها كان يمكن أن يصير رئيس أساقفة إسبانيا، لكن الظروف دفعته إلى الإستشهاد. كانت هناك فتاة من أبوين مسلمين قد تنصّرت ودخلت عند إحدى الراهبات من أقاربها وأطلق على هذه الفتاة أسم ليوكريتيا Leocirtia ثم اتصلت بأولوج وأصبحت صديقة أخته وكان يعلمها في بيته، وفي إحدى الليالي تأخرت واضطرت إلى المبيت. لقد إكتشف أمرها أحد الجواسيس، وفي الصباح تم إلقاء القبض على أصحاب البيت، ولما سئل أولوج قال أن من واجبه تعليم من يجهل " كما كنت أودّ أن أفعل معك نفس الشيء " قائلا بأنه سيكون سعيدا. بعث القاضي من يحضر العصي لتأديب أولوج الذي ردّ عليه "سن شفرتك " لتحرر روحي من أغلال الجسد "وكان ألفارو هو الذي روى هذا الخبر وقال : لما عاتبهم على : " عدم صدق

نبيهم ودينهم بفصاحة كافية " ، أسرع به إلى قصر الأمير، وسحب أمام المجلس، وقد كان أحد أعضائه صديقا حميما لأولوج. فطلب منه التعقّل وعدم فعل أفعال المجانين، وما عليك إلا أن تتفوه بكلمة واحدة، بعدها يمكنك العيش كيفما رغبت، وأعاهدك ألاّ نحاكمك أكثر من ذلك، لكن أولوج رفض، وقد مات في اليوم الخامس قبل عيد الفصح، وبعد أربعة أيام ماتت ليوكريتيا، وألقي جسداهما في النهر، وفي تلك الليلة كان يحتفل بقصة الثمانية والأربعين شهيدا، وبعد وفاته ووفاة ليوكريتيا وصل عدد الشهداء إلى الخمسين"[9].

لم تكن وفاة أولوج مثالية بالنسبة للحركة لأنه لم يندفع نحو الموت بمهاجمة الإسلام على النهج الذي أسسته الحركة لنفسها منذ البداية. من الواضح أن لا أحد من رجال السلطة البارزين كان يعلم أن أولوج هو زعيم الحركة لمدة طويلة من الزمن، بل على العكس من ذلك فقد عرفه الأعيان بأنه رمز للإعتدال، حتى لدى المسيحيين الأكثر تعصبا واندفاعا للموت، وأكثر انتقادا لإخوانهم الراغبين في العيش بسلام مع المسلمين.

والملاحظ أيضا أن القاضي كان يعارض دوما حكم الإعدام، وكان لا يفعل ذلك إلا مضطرا مثلما حدث في حالة تعرض المسلمين للخطر وهم يؤدون الصلاة في المسجد في مرّة من المرات، ويرجع الفضل إلى سلطة القاضي الذي أنقذهم من عقاب وخيم في كثير من المرات.

---

[9] Norman Daniel, *op. cit.*, pp. 23-26.

لقـــد إستعصى على السلطات التحكّم في الوضع والسيطرة عليه، إلا بعد صعوبة كبيرة، فالكلّ أصبح يعلم أن أولوج وصديقه ألفارو كانا يدفعان الناس إلى إثارة العداوة والتعصب، ودليل ذلك اعتراف ألفارو نفسه بأنه احتفل بالنصر حينما " إنضم أولوج إلى جيش الشهداء المجيد"[10].

إن أولـــوج، وعلـــى الرغم مما قيل حول شخصيته فهو يستحق تفسيرا أكثر، فهل كان مجرد كاهن (رجل دين) طموح، جعل نفسه زعيما للحركة وأثار في نفوس ضحاياه التفضيل الكنيسي؟. ربما ينفي هذا الرأي نهايته المأساوية، ولكن التـــناقض الذي كان بين تحمّسه العجيب للقضية وتزعمه إياها، وبين انتحاره من جهة، وبين تردده في الدفع بنفسه إلى الهلاك حتى آخر لحظة من جهة أخرى، يظهر أن هـــناك حســـابا للعواطف الشخصية الصريحة والموحية منذ البداية بمواقف ذاتية متناهـــية الخصوصية، لقد كان شديد الإفتخار بفلورا وشديد الشوق إليها وتألمه لندوبها الجسدية، وشعرها، "وتصوراته للعرس السماوي، ولبيت الدعارة الأرضي"، كـــل هـــذا يزيد من تساؤلاتنا أكثر مما يجيب عليها!!!. ومن الملاحظ أيضا كما يقول نـــ دنيال أنه كان:

"شـــجاعا متواضعا محسنا عفيفا، لكنه كان يختلف عن ألفارو المؤلف المحتـــرف، البارع في التحفظ، الذي يمثل الرجل المتأني الحذر في داخله، والمـــتحمس ببراعة لإستشهاد الآخرين. كما أنه كان يمقت الزواج كما

[10] Alvaro, *Vita vel Passio S. Eulogii* in (MPL) 115, d'après, Daniel Norman, *op. cit.*, p. 26.

يصف ذلك بدقة ويتزوج من جهة أخرى ويبحث عن الرهبة في وسط الشهوة والرغبة، ربما لم يجد سبيلا إلاّ الزواج "[11].

إن كـــلا المـــؤلفين كانا يعيشان توترات شديدة، لقد تردد ألفارو في أن لن يكون شهيدا وبنفس الأسلوب لن يكون راهبا، وبين هاته الحالات وتلك، كانت حركة الشهداء وتعبيراتها الأدبية قد نشأت في وسط التوتر النفسي والاجتماعي، ومن هذا التوتـــر انبثقت المواقف المسيحية الغربية تجاه الإسلام، لتشكل جوهر الوعي الغربي لمدة زمنية طويلة.

إن هـــذا الوضـــع قد أنتج إضطراب يبقى غير مفهوم، وفي الوقت ذاته يـــؤكد كراهية الإسلام التي غطاها القناع الخارجي الهادئ للأقلية الدينية المشكلة لفئة يائسة داخل مجتمع ربما يكاد يكون هو أيضا كذلك. وهذا الشعور هو الذي كـــان يعكّر على المسلمين صفو تسامحهم، وقبولهم للآخر على الرغم من إختلافه الديني والعرقي. وظل الإختلاف الديني زمن العصور الوسطي عامل عداء وصراع في كل المجتمعات والحضارات تقريبا. لقد تعرّض اليهود للإضطهاد بسبب تشبثهم بالخصائص الأساسية التي شكلت هويتهم الدينية والعرقية، كما أُضطهد المسيحيون بسبب مواقفهم، وإصرارهم على عقيدتهم. ولّما جاء الإسلام أسس عقيدة التوحيد العالمية المتسامحة، وهذه العقيدة هي فكر وسلوك ووعي. إن التاريخ لم يسجل لأهل الكتاب صفحات التسامح الناصعة كما سجّلها تاريخ الأقليات الدينية في الإسلام. لكننا لا يجب أن ننفي من التاريخ تلك الظروف العصيبة التي مرّ بها أهل الكتاب في

[11] Daniel Norman , *op. cit.*, p 39.

بعض فترات التاريخ الإسلامي والتي كانت نتيجة تناسي اليهود والنصارى لحقيقة موقعهم داخل المجتمع الإسلامي وتماديهم في المساس بمصالح المسلمين الدينية والدنيوية، كما لا يجب أن ننسى تلك التجاوزات التي كانت تصدر عن بعض المسلمين جهلا أو تعصبا، أو ظلما، وأيضا من بعض الحكام الذين مست سطوتهم المسلمين وغير المسلمين على السواء.

إن حركة الشهداء هاته هي إستجابة إستثنائية على التحدي الذي فرضه الواقع الجديد من الناحية الدينية والسياسية والمعرفية، لقد أعاد المسلمون صياغة نظام الإعتقاد العالمي بالعودة إلى مبدأ التوحيد الخالص، وصياغة نظام التعقل بالإرتكاز على مبدأي الصدق والعدل... وتغيّر الواقع العالمي في هذا الإتجاه.

لقد تحطم النظام الاقتصادي الربوي اليهودي منذ تأسيس دولة المدينة، وفقدت المسيحية كل أراضيها ومعظم أتباعها في آسيا وإفريقيا وشبه جزيرة إيبيريا. كان على الكنيسة مواجهة الوضع وتحديد المواقف والإستجابات. سياسيا وعسكريا ظلت الإستجابات بطيئة وضعيفة وغير منظمة أما من الناحية الفكرية فإن أباء الكنيسة أصبحوا مجبرين على إيجاد نظام مواجهة مقنع وفعّال... كان يجب فهم الإسلام أولا ثم البحث في التراث الجدلي الكنسي وتقديم الحلول ثانيا.

لقد تحدّث تيوفان عن وفاة النبي (ص) ووصفه بأنه نبي كاذب من نسل إسماعيل عليه السلام وترجم كتابه Chronographica المكتبي الروماني أناستاس Anastas من الإغريقية إلى اللاتينية وأصبح مصدرا أساسيا من مصادر الإسلام في الغرب، ثم ترجمت أعمال يوحنا الدمشقي إلى اللغة اللاتينية حيث تحدّث في كتاب

البدع De Heirisibus Liber عن الإسلام ووصفه بأنه بدعة مسيحية تشبه الأريوسية.

في هذه الأثناء تأسس نظام جدل مسيحي ضد الإسلام ضعيف ومضطرب بسبب قلة وندرة المعلومات عن طبيعة الإسلام وخصائص المسلمين وأيضا بسبب ضعف النسق الجدلي الكنسي اللاهوتي وعدم إتزان بنائه المعرفي والمنهجي. إن إنتاج حركة الشهداء الأدبي والجدلي، لم يكن سوى إستمرار إستجابات مسيحية ضعيفة وعشوائية وصلت إلى درجة الذروة العدائية وأغلقت كل قنوات الإتصال أمام الأبسرياء من النصاري بإجبارهم على البقاء في ظلمات الجهل، وقهر وإتهام كل أصحاب الفكر المتحرر والطموح في معارف تتجاوز نظام الكنيسة المعرفي.